

إسهام الإسلام في ازدهار العالم

أيها السيدات والسادة،

إنه ليسعدني وبشرفني أن أتحدث إلى جمعكم الكريم محاولاً أن أعرض الصورة الصحيحة للإسلام في هذا الحوار بين الحضارات:

وأرجو بادئ ذي بدء أن تسمحوا لي بأن أستعرض معكم عدداً من المفاهيم الأخلاقية الإسلامية، إذ إن الإسلام نفسه، كما يصفه الله تعالى في كتابه العزيز، إنما هو مجموعة من القيم: "قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قِيماً" (الأنعام: 161). فهي إذاً قيم أساسية، وأي مفهوم للإسلام يتجاهل هذه القيم إنما هو مفهوم خاطئ لا يركز إلى أساس متين.

وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن هذه القيم أودُّ أن أحتاط لنفسي فأقول: إنني أتحدث عن الإسلام ولا أتحدث عن ممارسات المسلمين. فالإسلام يتمثل في آيات القرآن الكريم وفي ما أثر عن النبي ﷺ من أقوال وأعمال صحيحة ثابتة. أما بعد وفاة الرسول ﷺ فإن سنة الخلفاء الراشدين المهديين هي وحدها التي يترتب علينا أن "نعرض عليها بالنواجز"⁽¹⁾. أما بعد ذلك فإن أفعال كثير من المسلمين، حتى في تلك العصور الزاهرة، كانت بعيدة جداً عن الإسلام. وإنني إذ أستبعد هذه الأعمال والممارسات من الإسلام فإنما أنا مستن بما قاله النبي ﷺ: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"⁽²⁾.

* * *

أول هذه المفاهيم الأخلاقية هو أن الحرية في نظر الإسلام أكبر أهمية من الحياة نفسها. والدليل على هذا موجود في كتاب الله تعالى: "والفتنة أشد من القتل" (البقرة 191)، "والفتنة أكبر من القتل" (البقرة 217)، وهاتان الآيتان إعلان صريح أن الفتنة، التي تعني الحرمان من الحرية، هي أشد وأكبر من القتل الذي هو حرمان من الحياة، فمن المنطقي إذن أن نقول إن الحرية أكبر وأهم من الحياة نفسها. وليس هذا بمستغرب في شيء إذا نحن ذكرنا أن إنسانية الإنسان إنما تتركز وتتأصل بأن يكون حراً، وأن الله تعالى قد أسجد ملائكته للإنسان، المخلوق الحر الذي أعطاه الله حرية الاختيار أن يكون مؤمناً أو غير مؤمن، مطيعاً أو عاصياً، خيراً أو شريعراً.

* * *

المفهوم الثاني هو أن الإسلام يعترف بالآخر اعترافاً لا يقوم على شيء من التفرقة والمهانة مثلما كان الناس يُقسَّمون في القديم إلى "إغريق وبرابرة" أو إلى "رومانيين وبرابرة"، وإنما هو اعتراف يقوم على المساواة والعدل:

- ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون 6).

- ﴿لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ﴾ (كما جاء في دستور المدينة).

وغني عن القول إن هذا الاعتراف يستتبع أخلاقيات للحوار يؤسسها القرآن الكريم:

- (1) أخرجه البخاري عن العرياض بن سارية
 - (2) أخرجه مسلم عن عائشة أم المؤمنين
- ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتالي هي أحسن﴾ (النحل: 125)
- ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتالي هي أحسن﴾. (العنكبوت: 46)
- ﴿وانّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾. (سبا: 24)
- والاعتراف بالآخر يتطلّب دائماً السعي لإيجاد أرضية مشتركة:
- ﴿تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾. (آل عمران: 64)
- ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد﴾ (العنكبوت: 46)
- ﴿الله ربنا وربكم. لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم. الله يجمع بيننا﴾. (الشورى: 15)

* * *

والاعتراف بالآخر يستتبع قيمتين اثنتين، أولاهما الانفتاح على الآخرين. فالله سبحانه وتعالى قد جعل الناس ﴿شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ (الحجرات: 13) ولا يمكن للناس أن يتعارفوا إلا إذا فتح كل منهم عقله وقلبه متقبلاً ما لدى الآخر. ويلفت الدكتور حسان حتوت انتباهنا إلى أن كلمة "يتعارف" المذكورة في الآية القرآنية تحمل كذلك معنى التفاعل مع الآخر بالمعروف.

والله سبحانه وتعالى يبشر عباده "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه." (الزمر: 18) أما النبي ﷺ فيصف الحكمة بأنها "ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها" (3). ويقول علي بن أبي طالب، رابع الخلفاء الراشدين: "إن العلم هو ضالة المؤمن، فخذوه حتى من أيدي المشركين" (4). ولهذا السبب يذكر الله تعالى في القرآن الكريم الحجج التي يسوقها الآخرون، ويوجّه المسلمين إلى أن يطلبوا من الآخرين تبيان حجّتهم: "قل هاتوا برهانكم." (الأنبياء: 24، والنمل: 64)، "قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟" (الأنعام: 148).

* * *

أما القيمة الثانية التي يستتبعها الاعتراف بالآخر فهي تقبل الاختلافات. فالله سبحانه وتعالى يقول إنه قد خلق الناس ليكونوا مختلفين، وأنهم سيظلون مختلفين: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم." (هود: 118-119) وهذا يعني

أن الله سبحانه وتعالى لن يسمح بمحو هذه الاختلافات وإلغائها بعد أن فطر الناس عليها. لذلك يجعل الإكراه محرماً في أمور العقيدة: "لا إكراه في الدين" (البقرة: 256). وهو سبحانه يقول لنبيه ﷺ: "لست عليهم بمصيطر (الغاشية 22). ويقول له: "وما أنت عليهم

(3) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة.

(4) رواه ابن عبد البر في كتاب 1- 121

بجبار". (ق 45). ويقول ربنا جل وعلا مخاطباً نبيه كذلك: "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟" (يونس 99). ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ (المائدة: 48).

* * *

أما المفهوم الثالث فهو العدالة. والإسلام يعتبر العدل قيمةً ضرورية، بل هي الغرض الرئيسي من إرسال الرسل: "لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط". (الحديد 25).

ويأمر الله سبحانه وتعالى بالعدل مع الناس كافة:

- "إن الله يأمر بالعدل". (النحل: 90)

- "قل أمر ربي بالقسط" (الأعراف: 29)

- "اعدلوا هو أقرب للتقوى" (المائدة: 80)

- "وأقسطوا إن الله يحب المقسطين" (الحجرات: 9)

والله تعالى يثني على طائفة خيرة فيقول: "ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون" (الأعراف: 159) "ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون" (الأعراف: 181).

وفي القرآن الكريم إشارات واضحة إلى ضرورة أن تكون العدالة ظاهرة في كل شيء:

- ففي الكلام: "وإذا قلتم فاعدلوا". (الأنعام 152)

- وفي القضاء: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل". (النساء 58)

- وفي إصلاح ذات البين: "فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا". (الحجرات 9)

- وفي الولاية: "وأن تقوموا لليتامى بالقسط". (النساء 127)
- والله سبحانه وتعالى يحذرننا من كل ما من شأنه الإجحاف والظلم:
- "فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا" (النساء 135)
- "ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا" (المائدة 8)
- "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين". (النساء 135).
- وفي اللغة العربية التي تنزل بها القرآن نجد أن كلمة "العدالة" تعني المساواة كذلك ونجد إشارة واضحة إلى ذلك في صحيفة المدينة، أي دستور الدولة الإسلامية التي أقامها رسول الله ﷺ في المدينة، تؤكد حق كل من ينتمون إلى المجتمع المسلم، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، في العدالة والمساواة في المعاملة: وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة."
- والله سبحانه وتعالى قد حرّم الظلم على نفسه، وجعله حرام بين الناس:
- "إن الله لا يظلم مثقال ذرة". (النساء 40).
- "إن الله لا يظلم الناس شيئاً" (يونس: 44).
- "ولا يظلم ربك أحداً" (الكهف: 49).
- "فما كان الله ليظلمهم" (التوبة: 70، الروم: 9).
- "وما الله يريد ظلماً للعالمين" (آل عمران: 108).
- "وما ربك بظلام للعبيد" (فصلت: 46).
- "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم حراماً فلا تظالموا" (5).

* * *

أما المفهوم الرابع فهو العلم بكل اختصاصاته ودون تمييز بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، والواقع أن العلم كان القيمة الأولى التي أنزلها الله تعالى في الآيات التي ابتدأ بها وحيه القرآن، فقال: "اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم" (العلق: 3-5).

واستمر تنزل القرآن الكريم على مدى ثلاثة وعشرين عاماً كان الناس يجدون خلالها ما وجدوه في الآيات الأولى من تركيز مرن على التناسق بين العلم والإيمان، فالقرآن يلفت انتباه الناس إلى آيات الكون، ليتأملوا الآفاق الكبرى ويتأملوا أدق التفاصيل.

- ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله: كيف يحيي الأرض بعد موتها.﴾ (الروم: 50).
- ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق.﴾ (العنكبوت: 20).
- ﴿أفرايتم ما تحرثون؟ ... أفرايتم الماء الذي تشربون؟... أفرايتم النار التي تورون؟﴾ (الواقعة: 63-68-71).
- ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة.﴾ (الحج: 63).

(5) أخرجه مسلم من حديث أبي ذر

- ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه؟﴾ (النور: 43).
 - ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض؟﴾ (الزمر: 21).
 - ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض؟﴾ (لقمان: 20).
 - ﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ (الشعراء: 7).
 - ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض؟﴾ (سبا: 9).
 - ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور؟﴾ (الملك: 3).
- وفي القرآن الكريم 750 آية على هذه الشاكلة تعدل سبع كتاب الله تعالى.

* * *

يوجّه الله سبحانه وتعالى أنظار عباده إلى أن البيئة التي يعيشون فيها أكبر وأضخم كثيراً مما يتصورون، وأنها ميسرة طائفة، ومسخرة لهم. فكل ما عليهم هو أن ينتفعوا بها أفضل منفعة، يقول الله تعالى: "الله الذي سخر لكم البحر" (الجاثية 12). "وسخر لكم الأنهار" (إبراهيم 32). "وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار" (إبراهيم 33). "ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض" (الحج 65). ويقول سبحانه: "وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه" (الجاثية 13).

- والله سبحانه الذي خلق الأرض قد "بارك فيها وقدر فيها أقواتها" (فصلت: 10)، وهذا التقدير إنما هو نوع من التوازن بين الظواهر الطبيعية نشاهده في الكون كله:
- ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ (الحجر: 19).
 - ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم.﴾ (الحجر: 21).

- ﴿ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط، ولا تخسروا الميزان﴾.
(الرحمن: 7-9).

* * *

إن قد سخر الله تعالى للإنسان هذه الأشياء كلها وأطلق يده فيها يستخدمها كيف يشاء، وبذلك استطاع الإنسان أن يستخدم ينابيع المياه، ويستغل مصادر الطاقة، ويتخير النباتات التي يفضلها لطعامه، ويستأنس الحيوانات التي يأكل منها، ويستخدمها لركوبه وفي أعماله المختلفة، كما استطاع أن يتعاون مع غيره من البشر لزيادة المعرفة وتحسين الوسائل التقنية فيزيد استفادته من خيرات الأرض وبركات السماء.

وفي كل هذا يظل عمل الإنسان متناسقاً كل التناسق مع غاية وجوده في الأرض التي يحس بالانتماء إليها، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ (هود: 61). وهذا يعني أن الذين لهم حق البقاء على الأرض هم الأكثر أهلية للحياة فيها: ﴿أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (الأنبياء: 105). ولقد عرف التاريخ أقواماً كثيرة ممن ﴿أثاروا الأرض وعمروها﴾ (الروم: 9). ومع تقدم الإنسان أخذ التاريخ يشهد بعض آثار الفساد الذي يطرأ مع الاستخدام المفرط لكنوز الكون.

والله سبحانه يحرم الفحشاء والفسوق والعصيان، وكلمة "العصيان" تشمل في معانيها العدوان والفساد.

وينبها الله سبحانه وتعالى إلى ما يمكن أن يقع - وما نشاهده واقعاً في أيامنا هذه - عندما يفرط الإنسان في استغلال البيئة دون أن يلقي بالاً إلى ما يفسده من توازن فيها إذ يقول الله تعالى: "ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض" (الشورى 27)، ويقول جل وعلا: "ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون". (الشعراء 151-152). ويقول الله تعالى: ﴿ولو اتَّبَعَ الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ (المؤمنون: 71).

المشكلة إذن ليست في الاستفادة بما تجود به السماء أو بالنعمة الموجودة في الأرض، فذلك أمر طبيعي ينتج من أن هذه الأشياء مسخرة للإنسان، أو هي من عمل الإنسان في عمارة الأرض. ولكن المشكلة إنما هي في التبذير والطغيان والإسراف والعدوان، وهي كلها مترادفة في الدلالة على الزيادة والإفراط وعدم مراعاة التوازن، كما أنها كلها تؤدي إلى الإخلال بالتوازن الموجود في الطبيعة إخلالاً يفسد بيئة الإنسان ويجعلها غير صالحة لحياة البشر. والله سبحانه قد نهانا عن الإفساد في الأرض في مواضع عدة من كتابه العزيز. وإفساد البيئة هو أول ما يتبادر إلى الذهن في هذا الإطار، من غير أن نستثني سائر صور الفساد. فمن أمثلة ما يقوله الله سبحانه في هذا الخصوص:

- "ولا تعثوا في الأرض مفسدين" (البقرة 60).

- "ولا تفسدوا في الأرض" (الأعراف 85).

- "ولا تبغ الفساد في الأرض" (القصص 77).

وقد حذر أنبياء الله جميعاً أقوامهم من الإفساد في الأرض تحذيراً واضحاً متكرراً.

ويذكر الله سبحانه وتعالى على وجه الخصوص الفساد الذي يؤدي إلى إتلاف النبات والإضرار بالحياة الحيوانية، فيقول سبحانه: "ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد". (البقرة 204-205).

وقد استقرت هذه المفاهيم في أذهان المسلمين، يقول الإمام ابن حزم: والرفق بالحيوان عمل صالح يدل على تقوى الله، والذي يمتنع عن فعل ما ينفع الحيوان يُسهم في الشر والفسوق ويكون عاصياً لله تعالى... بل إن من الممكن إرغام المرء على ريّ أشجار النخيل إذا كان عدم ريّها رِيّاً جيداً يؤدي إلى موتها. ومثل هذا في سائر النبات، والدليل على هذا موجود في قوله جل وعلا: ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل. والله لا يحب الفساد.﴾ (البقرة: 205). ويواصل ابن حزم كلامه فيقول: "فحرمان الحيوانات مما هو ضروري لحياتها، مثل حرمانها من غذائها المناسب أو من الرعي، وإهمال ريّ أشجار الفاكهة وغيرها من النباتات حتى تموت هي أعمال يصفها الله تعالى إفساد في الأرض وإهلاك للحرث والنسل. وغني عن القول إن الله سبحانه يكره ذلك" (6).

(6) (ابن حزم: المحلى).

وهذا الإفراط في استغلال البيئة دون ضابط ولا نظام يعتبر من أشد الظلم كما يعتبر جحوداً بنعمة الله. فالشكر على العطية يكون عادةً بالمحافظة عليها، لا بتغييرها وتشويهها وإفسادها، وهو ما يحذر الله تعالى منه: "ومن يبذل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب" (البقرة: 211).

ويضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً في كتابه العزيز للقريّة التي "كانت آمنة مطمئنة يأتونها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون". (النحل 112)، ويقول الله سبحانه وتعالى عن مدن وقرى أخرى: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد.﴾ (هود: 102). ويقول سبحانه: ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ (العنكبوت 40)، غير أن أهلها كانوا "يبغون في الأرض بغير الحق. يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم". (يونس 23).

* * *

وقد حرص النبي على تشجيع الزراعة لزيادة الموارد الزراعية وتحسين البيئة والرفق بها. فهو يقول: "إذا قامت الساعة وفي يد أحد أحدكم فسيلة فاستطاع أن لا تقوم حتى يغرستها،

فليغرسها، فله بذلك أجر"⁽⁷⁾، ويقول النبي: "ما من غرسة يغرسها المسلم، أو بذرة يزرعها، فيأكل منها إنسان أو حيوان أو مخلوق إلا هي له صدقة"⁽⁸⁾، ويقول صلى الله عليه وسلم: "من أحيا مواتاً فهي له"⁽⁹⁾. "إذا غرس المرء غرساً أو زرع زرعاً كان له أجر في كل مرة يأكل منه مخلوق"⁽¹⁰⁾. من أحيا أرضاً مواتاً كان له بها أجر، فإذا أكل منها مخلوق كتبت له بها صدقة"⁽¹¹⁾.

وقد سار الخلفاء الراشدون على هذه السنة النبوية المباركة، قد كتب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه معلناً للناس "أن من أحيا أرضاً مواتاً فهو أحق بها"⁽¹²⁾.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خطبة له: أيها الناس كونوا عوناً على أنفسكم، فسبعة رجال أو تسعة يمكن أن يحيوا قرية ميتة بإذن الله"⁽¹³⁾. وجاء رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: "لقد مررت بأرض خربة لا يدري أصحابها ما يفعلون، فابتعت ماءً وزرعتها." فقال له علي: "كل هنيئاً مريئاً. فأنت مصلح لا مفسد، تعمر ولا تخرب"⁽¹⁴⁾.

(7) أخرجه الإمام أحمد من حديث ابن مالك.

(8) أخرجه مسلم من حديث جابر

(9) أخرجه الترمذي من حديث جابر

(10) ذكره يحيى ابن آدم في كتاب الخراج عن أبي أسيد

(11) ذكره يحيى ابن آدم عن جابر بن عبد الله

(12) ذكره يحيى ابن آدم في كتاب الخراج عن محمد بن عبيد الثقفي، الصفحة 89

(13) (المرجع السابق ص 46)

(14) (المرجع السابق ص 63)

وكتب عمر بن عبد العزيز، خامس الخلفاء الراشدين، إلى أحد عماله: "انظر ما حولك من أرض زراعية فاكرها بنصف غلتها، فإن لم تجد فبالثلث. فإن لم يأخذها أحد فاكرها ولو بعشر غلتها. فإن لم يأخذها أحد فأعطها لمن شاء، فإن ظلت بوراً فاجعل نفقتها على بيت المال⁽¹⁵⁾".

* * *

أما المفهوم الخامس من المفاهيم الإسلامية فهو الإحسان. ولعل كلمة الإحسان من أفضل الكلمات تعبيراً في لغة القرآن فهي تعني الصلاح والإتقان والرحمة والعطف والازدهار والجمال. فالله سبحانه وتعالى يثني على عباده "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه". (الزمر 18) والإحسان والإتقان مطلوبان في كل شيء يقول رسول الله ﷺ: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"⁽¹⁶⁾. ولفظ الإحسان يشمل ظلالاً من العطف والرعاية الحانية التي نفتقدها الآن في مجتمعاتنا المعاصرة، إذ يعبر عن الاستعداد للبذل والعطاء، بل والاستعداد لإيثار المرء أخاه أو أخته على نفسه، والإحسان يعني كذلك يقظة الضمير ومراقبة المرء الله تعالى في كل عمله. يقول رسول الله ﷺ "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه"⁽¹⁷⁾. وكل هذه الدلالات والمعاني تتوَّج بلمسة جمالية تنعكس على كل شيء وكل عمل فهي منبثقة من جمال الله تعالى، إذ يقول النبي ﷺ: "إن الله جميل يحب الجمال"⁽¹⁸⁾.

* * *

يقيم الإسلام العلاقات بين البشر على أساس الأخوة المطلقة، سواء كانت هذه العلاقات بين الرجال والنساء أو بين المسلمين وغير المسلمين، لقد كان رسول الله ﷺ يقول في أنكاره اليومية: "وأشهد أن الناس، كل الناس، إخوة"⁽¹⁹⁾.

يخرج المجتمع إلى الوجود عندما يصبح كل فرد في هذا المجتمع لبنة فيه ولا يعني هذا أن يذوب الأفراد في المجتمع فتتعدم شخصياتهم، ولكنه يعني أن كل أفراد المجتمع يحسون إحساساً قوياً بالرابطة التي تؤلف بينهم وتوحدهم. يعبر

(15) (المرجع السابق ص 62)

(16) أخرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث شداد بن أوس.

(17) متفق عليه.

(18) أخرجه مسلم عن ابن مسعود.

(19) أخرجه الإمام أحمد، وأود أن أنبه إلى أن كلمة "رجل" التي تعني "الإنسان" تستخدم في لغة القرآن والحديث النبوي بمعنى إنسان، ولا تقتصر على الذكر. كذلك تستخدم كلمتا "مسلم" و"مؤمن" في القرآن والحديث بمعنى الإنسان ولذا فإن استخدام أي من هذه

الكلمات في القرآن والحديث، في خطاب للمجتمع الإسلامي لا يعني أنها تستثني غير المسلمين من أبناء هذا المجتمع، لأن هؤلاء يعاملون معاملة المسلمين سواءً بسواء.

الحديث النبوي عن ذلك أجمل تعبير: "المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً"⁽²⁰⁾. وقد شبك رسول الله ﷺ بين إصبعيه مؤكّداً هذا المعنى. كذلك يعطينا النبي ﷺ صورة جميلة أخرى تؤصّل مفهوم التضامن. فيقول: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد: إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"⁽²¹⁾. فلنتأمل هذه اللمسات الجميلة في التعبير النبوي مؤكّدة عناصر التضامن التي تُعطي كلها صورة التفاعل المتبادل. وهذا يعطينا الإحساس بأن المحبة والعطف والرحمة مشاعر يحس بها الجميع، ويتلقّاها الجميع في إطار يتداوله الجميع.

يقول الرسول ﷺ: "خير الناس أنفعهم للناس"⁽²²⁾. وهذا نص يشبه ما جاء في الحديث الآخر: "أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس"⁽²³⁾. ويقول ﷺ: "من استطاع منكم أن ينفع أخاه بشيء فليفعل"⁽²⁴⁾. وهذا يعني أن على المسلم أن يعين أخاه المسلم وأن لا يألو جهداً في تحقيق مصالحه. فالإسلام لا يسمح لمسلم إطلاقاً بأن يكون سلبياً أو متوانياً في أداء مسؤولياته الاجتماعية. ويكفي أن نورد هنا قول النبي ﷺ: "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"⁽²⁵⁾.

ويقول رسول الله ﷺ: "المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يُسلمه"⁽²⁶⁾. وفي رواية أخرى: "ولا يخذله"⁽²⁷⁾. ولا يجوز لأي مسلم أن يقف موقفاً سلبياً إذا رأى إنساناً في المجتمع الإسلامي بأنه يتعرّض لظلم، بل لابد له أن يعينه، فإنه إن لم يفعل يكون قد خذله وأسلمه. بل إنه بذلك يحرّمه من حق له على كل إخوانه في المجتمع الإسلامي، رجالاً ونساءً.

* * *

إن المجتمع الإسلامي يجب أن يكون دائماً في حالة مستمرة من التقدّم والتنمية كي يجسّد عملياً الوصف الذي جاء في الإنجيل وذكره القرآن. وهذا النص يصف المجتمع الإسلامي بأنه "كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه. يعجب الزراع". (الفتح 29). وهذا يعني أن كل فرد في المجتمع المسلم إنما يماثل نبتة أو غصناً في شجرة، فهو ليس عبئاً على المجتمع، بل يؤدي واجبه ليكون عوناً وقوة لهذا المجتمع. وعندما يكون التعاون من كل الأفراد، فإن المجتمع يتآزر، ويستغلظ، ويستوي على سوقه، ليعجب الناس جميعاً.

(20) متفق عليه

(21) متفق عليه

- (22) أخرجه الدارقطني في كتاب الأفراد، والضياء المقدسي من حديث جابر.
- (23) ذكره ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج وابن عساكر عن عدد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.
- (24) أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله
- (25) أخرجه الطبراني عن حذيفة بن اليمان.
- (26) متفق عليه
- (27) أخرجه مسلم عن أبي هريرة

والمبدأ الأساس لكل ذلك هو أن المجتمع الإسلامي يفرض على كل فرد من أفرادهِ واجباً في مؤازرة المجتمع إلى أن يصل إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي. فالمسلم، كما يقول النبي ﷺ، "يعمل بيده فينفع نفسه وينفع الناس" (28).

يفرض الإسلام على كل فرد من أبنائه أن يعمل لكسب معاشه، فيقول الله تعالى: "وابتغوا من فضل الله". (الجمعة 10)، وهو يشجع الفرد على القيام بأي عمل يدر عليه دخلاً ويسد حاجاته. يقول النبي ﷺ: "من استغنى أغناه الله، ومن استعفف أعفه الله" (29). ويقول: "لأن يأخذ أحدكم أحبله، ثم يأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعهها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس، أعطوه أو منعوه" (30). ويعلمنا رسول الله ﷺ أنه "ما أكل أحد طعاماً أفضل من أن يأكل من عمل يده. وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده" (31). فالإسلام إذن يبني مجتمعاً يمكن أن نسميه بحق "مجتمع اليد العليا"، وهي اليد المنتجة المعطاة، إذ يقول النبي ﷺ: "اليد العليا خير من اليد السفلى" (32).

ولا يبيح الإسلام التبذير وتبديد الموارد، فالرسول ﷺ يقول: "إتلاف المال حرام" (33). والله سبحانه وتعالى ينهانا عن التبذير فيقول: "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط". (الإسراء 29) ويصف الله تعالى عباده بأنهم "إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا". (الفرقان 67). ويأمرنا ربنا جل وعلا: "ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين" (الأنعام 141). بل إن رسول الله ﷺ يأمرنا بالاقتصاد حتى في استخدام الماء للوضوء (34)، فالاعتدال هو التصرف الأمثل في كل الأمور.

* * *

ومن أهم عناصر الإحسان، ما يُعرف بالعربية باسم الصدقة. والصدقة كلمة جميلة يستخدمها الإسلام تعبيراً عن ما نسميه اليوم بالتصرف الحضاري، والظلال التي يلقيها اسم الصدقة تعطي دلالة حقيقية على انتماء الفرد إلى مجتمع إسلامي حضاري.

ويفرض الإسلام على كل مسلم، ذكراً كان أو أنثى، أن يثبت مرة على الأقل في اليوم انتماءه إلى المجتمع المسلم بالقيام بعمل حضاري واحد على الأقل. فالنبي ﷺ يقول في توجيه عام

صادر لكل المسلمين: "على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس، صدقة منه على نفسه"⁽³⁵⁾. وقد ظن أحد أصحاب النبي ﷺ أنه إنما قصد الصدقة بالمال، فسأله: "من أين أتصدق وليس لنا أموال؟" وجاء رد النبي ﷺ يبين الجوانب العديدة للصدقة في المنظور الإسلامي

(28) متفق عليه.

(29) أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو

(30) أخرجه البخاري عن الزبير بن العوام

(31) أخرجه البخاري عن المقدم بن معديكرب

(32) أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو

(33) متفق عليه

(34) أخرجه النسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو

(35) أخرجه الإمام أحمد عن أبي ذر.

فقال: "تأمر بالمعروف وتنتهي عن المنكر، وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظم والحجر، وتهدي الأعمى، وتسمع الأصم، والأبكم حتى يفقه، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعك مع الضعيف. كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك".

وفي رواية أخرى يقول النبي ﷺ: "تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال صدقة، وبصرك الرجل الرديء البصر صدقة، وإمطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة"⁽³⁶⁾.

غير أن النبي ﷺ لم يترك الجانب المالي من الصدقة دون جواب، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: "على كل مسلم صدقة". قالوا: "فإن لم يكن له مال؟". قال ﷺ: "يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق"⁽³⁷⁾.

وجاء في رواية ثالثة أن صحابياً قال: "سألت النبي ﷺ: رأيت إن لم أفعل؟ فقال: تعين أخاك أو تصنع لأخرق، قلت: أفأرأيت إن لم أفعل؟ فقال: تكف شرك عن الناس، فإن ذلك صدقة منك على نفسك"⁽³⁸⁾.

وجاء في رواية رابعة أن النبي ﷺ قال: "كل كلمة طيبة صدقة، وعون الرجل أخاه صدقة، والشربة من الماء تسقيها صدقة، وإمطة الأذى عن الطريق صدقة"⁽³⁹⁾.

ونذكر حديث رسول الله ﷺ الذي يقول إن "طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي ثمانية (40). ومفهوم المشاركة هذا يرتقي به رسول الله ﷺ إلى مستوى أسمى بكثير، فيقول: "من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضل زاد فليعد به على من لا زاد له." (41). وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه الذي روى هذا الحديث أن النبي ﷺ قد "ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل" ويعطي رسول الله ﷺ هذا المثل الرائع لفئة فاضلة من المجتمع الإسلامي فيقول: "إن الأشعريين إذا أرموا في الغزو أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم بالسوية، فهم مني وأنا منهم." (42).

(36) أخرجه الترمذي بهذه الرواية، وأخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وابن حبان.

(37) متفق عليه

(38) متفق عليه

(39) أخرجه البخاري في الأدب المفرد

(40) أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله

(41) أخرجه مسلم

(42) متفق عليه عن أبي موسى

والفضل، أو العفو كما يسميه القرآن، يشمل كل ما كان زيادةً عن الاحتياجات اليومية الاستهلاكية، ماليةً كانت أو عينية. يقول الله تعالى: "ويسألونك ماذا ينفقون؟ قل العفو" (البقرة: 219)، وهذا الفضل أو العفو لا يقتصر على المال وحده بل يشمل كذلك كل ما يمكن أن ينتج شيئاً.

فالله سبحانه وتعالى يذم "الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون." (الماعون: 6-7).

ويقول الله تعالى: "لينفق ذو سعة من سعته، ومن قُدِرَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله." (الطلاق: 7). "يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم" (البقرة: 254)، "وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه" (الحديد: 7).

ويورد الرسول ﷺ حديث الرجل الذي "سمع صوتاً يأمر سحابةً أن تسقي أرض فلان فانطلق يسأل عن سبب تخصيص ذلك الرجل وأرضه. فقال له صاحب الأرض إنه يقسم غلتها ثلاثة أقسام: ثلث للأرض، وثلث أنفق منه على عيالي، وثلث لله تعالى" (43).

فالإنفاق في الإسلام ضرورة في حد ذاته، فهو العجلة التي تكفل التقدم الاقتصادي والازدهار، والرسول ﷺ يقسمه كما في الحديث الأنف الذكر إلى ثلاثة أقسام: استهلاكي، واستثماري، وخيري، وهذا القسم الثالث إنما هو في حقيقته استثمار في استقرار المجتمع، فالإسلام يعمل على تداول رأس المال باستمرار، وبشكل طبيعي منعاً لتكدسه في أيدي القلة.

ومن المبادئ الرئيسية في مفهوم الإسلام للتنمية الاقتصادية حرية السوق.

"ارتفعت الأسعار مرة أيام رسول الله ﷺ فطلب منه الناس أن يحدّد الأسعار، فقال إن الله تعالى هو الذي يحدد الأسعار وترك الأمر لحركة العرض والطلب"⁽⁴⁴⁾. وهذا يبين أنه رفض التدخل لخفض الأسعار.

والدولة في الإسلام لا تتدخل في حركة السوق طالما أن هذه الحركة وأساليب الاستثمار تخدم المصلحة الاجتماعية، وتنسجم مع مفهوم العدالة بين الناس وفي التعامل مع البيئة.

وفي ختام هذه الكلمة أود أن أقول إن مفاهيم التنمية الاقتصادية، وحرية السوق والوعي بما يصلح البيئة، والاستقرار الاجتماعي والرخاء الإنساني إنما ترجع كلها إلى مجموعة المفاهيم والقيم التي يتكوّن منها الإسلام. فحرية التعامل والاتجار دون قيود إنما تُبنى على أهم القيم الإسلامية، وهي الحرية. أما القيمة التي تليها، وهي الانفتاح على الآخرين والتواصل معهم فتؤدي إلى الاستقرار وتتيح فرصاً أفضل في الاتجار والازدهار الاقتصادي. أما العدالة فتضمن عدم نشوء وضع يهدد بالظلم نتيجة هذا النشاط الاقتصادي، ولذلك فإن للمجتمع حق التدخل لمنع الاحتكار والاستغلال، بل إن هذا التدخل واجب عليه كذلك.

(43) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(44) أخرجه الترمذي وأبو داود والنسائي عن أنس بن مالك.

والمعرفة هي الوساطة الهامة التي تنقل العلم إلى دائرة التقنية، بل إن التقنية هي التعبير الاقتصادي عن العلم، ولذلك فإن تحصيل المعرفة يوفر دافعاً تقنياً يضمن استمرار التنمية الاقتصادية والازدهار.

وأخيراً فإن الإحسان يستكمل مشاركة المجتمع، لأن كل فرد يحاول أداء واجباته على أفضل صورة، مدركاً أن الله سبحانه وتعالى يطلع على عمله. والفرد يعتبر عمله صدقة، لذا لا بد أن تكون خالصة لا يشوبها شيء، إذ إنها نوعٌ من العبادة، والمسلم بعد هذا يهتم بكل جزء مهما صغر، لأن رسول الله ﷺ يقول: "لا تحقرن من المعروف شيئاً"⁽⁴⁵⁾.

(45) أخرجه أبو داود عن جابر بن سليم.